أنواء نيسان في أنباء تلمسان
تلمسان المسقط والجنة...من خلال "نفح الطيب" للمقري
«مدح وأوصاف ومقطوعات شعرية»

Anwaa Nissane fi Anbaa Tlemcen,

Tlemcen the birth and paradise...through "Nafḥ al-ṭīb" of "AL- MAQQARI"

"Praise, descriptions and poems"

"Praise, descriptions and poems"

د، سعدية بن ستيتي[1]

جامعة المسيلة

sadia.benstiti@univ-msila.dz ،

تاريخ الاستلام: 2019/10/07 تاريخ القبول: 2019/12/22 تاريخ النشر: 2019/01/20

الملخص:

لم تخل الكتب التراثية من العلوم والفنون والأخبار بمختلف مجالاتها، كما لم تخل أيضا من ذكر الأحداث التاريخية، لكن لكلّ مبدع طريقته في نقلها بالأسلوب الذي يعجبه ويستسيغه، وبذلك تميّزت بصفة الموسوعية وتعددية الأجناس الأدبية- إن صحّ لنا القول- ومن بين هذه الكتب نلمح كتاب "نفح الطّيب" لـ" المقري"، والذي مزج فيه بين أدب الرحلة ورواية التاريخ بشكل أدبي جمالي، وتناول فيه الكثير من القضايا التي تهمّ الإنسان في مجتمعه، ومن ضمنها الإحساس بالغربة والحنين إلى الديار فيما قدّمه لنا في الجزء السابع من مؤلفه "نفح الطيب"، فجادت قريحته في مدح ووصف تلمسان المدينة المنشأ والمسقط ، لذا اتجهنا إلى رصد تلك الأوصاف وتبيينها كي نُفيد من هذا المؤلف العريق.

الكلمات المفتاحية: نفح الطيب- تلمسان- أوصاف – رحلة- الحنين.

Abstract :

Heritage books have not been free of science, arts and news in all fields. Also, these books were not without mentioning historical events, but each creator has his own way of conveying them in the way he likes and formulates them. In this way, these books have been characterized as encyclopaedia and literary pluralism, if we may say, and among them we are

[1] - **المؤلف المرسل**: د، سعدية بن ستيتي، **الايميل** sadia.benstiti@univ-msila.dz

alluding to the book "Nafḥ al-ṭīb" for "Al-Maqqari". In it, he combined the travel literature with the novel of history in an aesthetic literary form, and addressed many issues of concern to man in his society, including a sense of alienation and longing for home in the seventh part of his book "Nafḥ al-ṭīb ", his reading was so praised and described tlemcen the city of origin and the projected (the birth), so we went to monitor these descriptions and show them in order to benefit from this ancient author

Keywords: Nafḥ al-ṭīb; Tlemcen; Descriptions; Journey; Nostalgia

- مقدمة:

قد تتعجبون من صوغ العنوان أوّل وهلة، لكن حتما ستتقبلونه بعد أن أخبركم أن هذا العنوان كان من المفترض أن يكون عنوانا لإحدى مؤلفات "المقري" وهذا بتصريح منه، بقوله:« وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتابا ممتعا أسميه بأنواء نيسان في أنباء تلمسان وكتبت بعضه، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار، وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها، ثم ارتحلت بنية الحجاز، وجعلت إلى الحقيقة المجاز، وها أنا الآن في البلاد المصرية، وفي علم الله تعالى ما لا نعلم، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم، والله تعالى يختم لنا بالحسنى بجاه نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم.» (المقري، 1997، 135)

نلاحظ أن "المقري" من خلال كلامه عن مشروعه الذي لم يكتمل، يبدي أسفا دفينا ، فيقدم جملة من الأعذار والمتمثلة في انشغاله بالإمامة والخطابة والفتوى، وغيرها من أمور حياته اليومية بالمغرب والتي حالت دون إتمام كتابه الخاص بتلمسان، هذه المدينة التي نبت وشبّ وترعرع فيها، فيسلم أمره في ذلك إلى الأقدار التي حالت دون تمكينه من تقديم ثنائه لهذه المدينة.

لذا ارتأينا أن نحي هذا العنوان المندثر، فيكون عملنا توصيفي لما ذكره "المقري" حول وصف مدينة تلمسان وما نقله لنا من قصائد تصفها وصفا يختلف عن وصفه لكل المناطق التي ارتحل إليها طوال حياته، فإذا كان "المقري" يعتمد في وصفه للأماكن التي يزورها على نقله لمظاهر الحياة العلمية وابتعاده عن الانبهار بالعمران وجمال هندسة البناء وعدم اكتراثه لجمال الطبيعة والبساتين وغيرها، فإنه ومن غير مراعاة نجده ينسى هذا المبدأ في حديثه عن مدينة تلمسان ويتحول من مؤرخ وكاتب ورحالة إلى متغن يشدو بأعذب ما ألّف وصفا لتلمسان، هذه المدينة التي تمثل المسقط والجنة والمآل عند "المقري".

1.دوافع رحلة المقري من تلمسان: تعلّق "المقري" بتلمسان تعلقا شديدا فهي المنشأ وهي الأصل ولو كان للعلم حدود لاكتفى "المقري" بتلمسان ولم يغادرها أبدا، لكنه طالب لا يهنأ له بال حتى يغرف من كل ينابيع العلم ومن كل العواصم التي تتأتى له زيارتها ، وهو يثبت ذلك من خلال قوله: «بها ولدت أنا وأبي وجدّي

وجدّ جدّي، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت إلى مدينة فاس سنة تسع وألف، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف، إلى أن ارتحلت عنها إلى للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف، ودخلت مصر برجب من عام ثمانية وعشرين وألف، والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف، وأبيت منها إلى مصر أواخر شوال من العام، وشرعت في هذا المؤلف بالقعدة من العام..» (جيرار جنيت،.....،ص76)

وعملا بما ينصه الحديث الشريف" أُطْلُبُوا العِلْمَ ولَوْ بِالصِّين" (أخرجه ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب عن حيث أنس بن مالك) جرت العادة آنذاك أن العلماء يبدؤون رحلتهم طلبا للعلم انطلاقا من فكرة آدائهم لفريضة الحج ومن هناك تتم زيارة الأولياء الصالحين والعلماء للأخذ عنهم والتبرك بمعرفتهم، لكن وجهة "المقري" اختلفت نوعا ما عن وجهتهم، فهو لم ينطلق مباشرة إلى المشرق، بل واصل سيره نحو الغرب حيث نهل من فاس ومراكش من المعارف والثقافة ما مكنه من امتلاك معارف جمّة ثم انتقل إلى المشرق فبدأ بمصر ثم الحجاز ثم الشام وبهذا يكون "المقري" قد أحاط بعلوم المشرق والمغرب الإسلاميين ولا يزال يغرف العلم بين الشام ومصر إلى أن وافته المنية بمصر.

وكان دافعه الأول من ترحاله هو حبه للثقافة والانفتاح على العالم والترحال، كل هذه الدوافع حرمت المقري من الاستقرار بتلمسان بعد أن استنفذ منها علما ومعرفة على يد أبرز مشايخها وعلمائها.

وكانت الحوصلة من ترحاله أننا الآن نطّلع على مؤلفاته التي تتسم بالموسوعية والتبحر في منافذ كثير إضافة إلى تلك اللغة الرصينة المميزة بألفاظها الممزوجة بما هو مشرقي وما هو مغربي في البلاد الإسلامية.

فأصبح المقري ناقلا للحديث بكل أمانة وهذا ما يتضح لنا جليا من خلال تصفحنا لكتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" الذي جمع فيه من الأحاديث ما يجعله يأخذ مكان الصدارة بين كتب أدب الرحلة.* وعلى الرغم من ضبابية هذا الكتاب (نفح الطيب...) إلا أنه يكتسب قيمة معرفية هائلة في جميع المجالات سواء من قدرة الكاتب المعرفية الثقافية، والإلمام بالأخبار، وعلى حسن استخدامه للغة العربية الجزلة بأسلوب ينم عن تكوين مستمر وكلام عذري نقله إلينا من أخبار الأوائل.

3.منهجية وصف تلمسان عند المقري: هناك طريقة تجعلنا نعجب بنص دون غيره، وتجعلنا نهتم بالأسلوب والكلمات، فنشغف بقراءة النصوص بمختلف أنواعها، وقد نتعجب من بعض ما تحمله النصوص من أخبار فنتسلى ونضحك، وقد نتأثر فنحزن، وقد ننفر من بعض ما تصوره لنا من مشاهد مخيفة أو غريبة عنا، سواء كان ذلك في النصوص القديمة أم الحديثة، ذلك يعود إلى تقنية يستعملها

*: **أدب الرحلة**: هو جنس أدبي يعتمد في مادته على حياكة نسيج متين من الحقائق العلمية والثقافية والتاريخية مع زركشتها أحيانا بزخرف خيالي خصب كان الرحالة يطوعونه للأغراض معلنة وخفية.

المؤلف وهي تقنية الوصف، فالوصف شيء أساسي في النص (حكاية، أخبار، نوادر، قصص،...)، وقد أشار "جيرار جنيت" (Gérard Genette) إلى هذه العلاقة الضرورية بين الوصف والسرد في قوله: «السرد لا يقدر على تأسيس كيانه بدون وصف، غير أن هذه التبعية لا تمنعه من أن يقوم باستمرار بالدور الأول، فليس الوصف في واقع الحال سوى خديم لازم للسرد.» (جيرار جنيت، 1992، ص76)

معنى هذا أن للوصف أهمية بالغة في إثارة نفسية المتلقي وتبرير بعض الأمور أثناء الحكي والإخبار فمثلا عندما يقوم المؤلف بوصف الشخوص خَلقيا وخُلقيا، فالصورة الجسدية وأوصاف اللباس لها دورها في رسم الصورة الحكائية لدى القارئ، هذا إضافة إلى الوظيفة الجمالية (التزيينية) التي يضفيها الوصف على النص ومن ثم فلا يمكن أن نتخيل حكاية أو قصيدة شعرية من دون وصف، وأن الصورة إذا غابت عوضها الوصف الذي ينقل الهيئة والحال إلى مخيلة السامع أو المتلقي. وقد عرّف "قدامة بن جعفر" الوصف بقوله: «الوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني التي الموصوف مركب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحسن بنعته.» (قدامة بن جعفر، د.ت، 130).

وقد وصف "المقري" مدينة تلمسان في كتابه نفح الطيب بطريقة واقعية وموضوعية على طريقة الوصف التصنيفي الذي يعتمد على نقل الشيء كما هو بحذافيره، فيعتمد على الاستقصاء والاستنفاذ (سيزا قاسم، 1990، 109).

قبل أن يُقْدِم "المقري" على وصف تلمسان تأثر ببيتين من الشعر أنشدهما له السلطان أمير المؤمنين "أبو عنان فارس بن أمير المسلمين أبي الحسن المريني" وهما: (المقري، 1997، 121)

يا ملما بأرض تلك البـــــلاد حي فاسا وحي أهل الوداد

إن تناءت بشخصها عن عياني فحماها مصوّر في فؤادي

بهذين البيتين تحرك الشوق لدى "المقري" نحو بلاده فتذكر قول العلامة "أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري" الذي وصف تلمسان بمقطوعة طويلة كان يمدح فيها أمير المسلمين "أبي حمو موسى الزياني" والتي كان مطلعها: (المقري، 1997، 121)

أيها الحافظون عهد الوداد جدّدوا أنسنا بباب الجياد

وصلوها أصلا ئلا بليال كلآل نظمن في الأجياد

في رياض منضدات المجاني بين تلك الربى وتلك الوهاد

تلاحظون أن "المقري" لا يتذكر بشكل سطحي بل إنه يأخذ من موسيقى البيت وحرف الروي منفذا له للإتيان بأبيات أخرى تصب في دائرة شوقه وبأسلوب جميل أيضا، فقد أتى بأبيات تسكن البحر نفسه وتحمل حرف الروي ذاته، والمتمثل في حرف الدال.

لم يكن "المقري" ينقل المقطوعات الشعرية فحسب، بل كان يدقق في نسبتها ، كما يحرص حرصا شديدا على تثبيت السند الصحيح، وأحيانا يذهب به المقام إلى الخوض فيما نسميه الآن مجال التأثير والتأثر، فيذكر صاحب المقطوعة الشعرية، ثم يليها بمقطوعة أخرى قيلت معارضة لها وعلى رويها أيضا، ثم يذكر أيهما تأثر بالآخر ، أو لنقل أنه يجزم بأسبقية أحدهما عن الآخر، مستدلا في ذلك بمقياس الزمن كحجة له، وكأنه ناقد في مجال الأدب المقارن.

وهو يصر على ذكر السند الصحيح والنسب العريق، فالفخر بالنسب من شيم العرب وقد فخر "المقري" بنسبه ونسب كل من قدم أخبارهم وحكاياتهم وأشعارهم، كل هذا اقتداء بالسلف الصالح، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم "حسان بن ثابت" رضي الله عنه أن يأخذ ما يحتاج إليه من علم نسب قريش عن "أبي بكر الصديق" رضي الله عنه، «وهذا يكذب قول من نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النسب علم لا ينفع، وجهل لا يضر، لأن هذا القول لا يصح.» (ابن حزم الظاهري الأندلسي، د.ت، 4).

وعلى سبيل التمثيل نذكر ما يلي: «ولأبي المكارم منديل الإمام الشهير صاحب المقدمة الآجرومية قصيدة في المنحى وافقت قصيدة الثغري في البحر وبعض المطلع فلا ندري أيهما نسج على منوال الآخر: إذ هما متعاصران...» ثم يذكر المقطعين:

يقول الأول:

أيها العارفون قدر الصبـــوح جدّدوا أنسنا بباب الفــتوح

فيقول الثاني:

جدّدوا ثَمَّ أنسنا ثم جـــــدو يسرح الطرف في مجال فسيح

حيث شابت مفارق اللوز نورا وتســاقطن كاللجين الصريح

وقد يستحسن مقطوعة شعرية معينة عندما تلامس مواطن الجمال في بلاده ، فيأنس لها قائلا:« ما أحسن قول الكاتب الثغري يمدح تلمسان بقوله : (المقري، 1997، 124)

تاهت تلمسان بحسن شبابــها وبدا طراز الحسن في جلبابها

فالبِشر يبدو من حباب ثغورها متبسما أو من ثغور حبابها

قد قابلت زهر النجوم بزهــرها وبروجها ببروجها وقبـــابها

حسنت بحسن مليكها المولى أبي حمو الذي يحمي حمى أربابها

ملك شمائله كزهر رياضـــــها ونداه فاض بها كفيض عبابها»

من خلال هذه المقطوعة تتداخل في تلمسان المدينة والمرأة، فالشاعر يصفها بأنها تلك الحسناء المحتشمة المتبسمة الثغر الجميلة القوام، وهي صفات المرأة، ويليها بوصف البروج المشيدة الحصينة،

ورياضها المزهرة وهذه صفات المدينة، فالمدينة هي المرأة والمرأة أيضا هي المدينة وكلاهما يعنيان للشاعر الاستقرار والأمان، ولعل هذا الأمر هو الذي جعل "المقري" يستحسن هذه المقطوعة.

يفاضل "المقري" أشعارا على أخرى بوصفها بالجودة والإتقان، إذ يقول: «وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان "أبي حمو موسى الزياني" ووصف بلاد تلمسان، وأجاد فيها إلى الغاية، وهي:

قم مبصرا زمن الربيع المقبـــل تر ما يسرّ المجتـــني والمجتـلي
وانشق نسيم الروض مطلولا وما أهداك من عرف وعرف فاقبل» (المقري، 1997، 126)

وعلى الرغم من كون ملاحظاته النقدية تقييمية موجزة تغلب عليها صفة الشمولية فحسب، شأنها في ذلك شأن النقد القديم، إلا أننا نتلمس في طياتها صفات الناقد الحصيف الملم بالأشعار والأخبار، متذوق للشعر عارف بصنعته، فيفاضل بين مقطوعة وأخرى وفقا لمقاييس ظلّت متخفية في ذهنه لا يفصح عنها.

ويواصل "المقري" استحسانه لبعض ما قيل في مدح تلمسان إذ يقول: « وما أحسن قوله* في مدح تلمسان:

حيا تلمسان الحيا فربـــــوعها صدف يجود بدره المكنون
ما شئت من فضل عميم إن سقى أروى ومن ليس بالمنـــون
أو شئت من دين إذا قدح الهدى أورى ودنيا لم تكن بالـدون
ورد النسيم لها بنشر حديــــقة قد أزهرت أفنانها بفنـــون
وإذا حبيبة أم يحـــــى أنجبت فلها الشفوف على عيــون

ولا يكتفي "المقري" بهذا، بل أحيانا يتبع المقطوعة شروحا وتأويلات للتوضيح، فنجده مثلا في البيت الأخير من المقطوعة السابقة يقدم بعض التأويل لكلمة العين وما يقصده الشاعر بها إذ يقول: «العين يعني بحبيبة أم يحي عين ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها، وكانت جارية بالقصور السلطانية، ولم تزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم، والبقاء لله تعالى وحده.» (المقري، 1997، 129)

الملاحظ لهذه المقاطع يرى أن "المقري" يكتب بطريقة المذكرات أثناء السفر، شأنه شأن المؤلفين القدامى، ونذكر منهم "الجاحظ" على وجه الخصوص، فقد تكلم "معروف الرصافي" عن هذا الأخير بقوله: «كان كتابه أشبه شيء بكشكول العاملي ومن جهة أخرى أنه كان يكتب فيه ما خطر على باله مما سمع وروى كان كتابه أشبه بمفكرة يحملها المرء فيثبت فيها كل يوم ما أراد إثباته من قول وعمل» (معروف الرصافي، 1917، 2).

* : يعني لسان الدين الخطيب.

ويذكر "المقري" مجموعة من الشعراء الذين مدحوا تلمسان، ومنهم : "الحاج الطبيب أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة" الشهير بالتلاسي، إذ يقول: (المقري، 1997، 129)

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبلا ربوع تلمسان التي قدرها استعـلى
ربوع بها كان الشباب مصـــــاحبي جرّرت إلى اللّذات في دارها الذيلا

وكذلك ذكر "المقري" مدحا للإمام الصوفي "أبي عبد الله محمد بن خميس"، بقوله:

تلمسان جادتك السحاب الروائح وأرست بواديك الرياح اللواقـــح
وسح على ساحات باب جيادها ملث يصافي تربها ويصافـــــح (المقري، 1997، 131)

ولا يكتفى "المقري" بنقل الأشعار التي قيلت مدحا في تلمسان، بل يعرفنا على المدينة بذاته، فيصف موقعها، ويفخر بمن سكنوها من أشراف وقواد وأمراء وعلماء عبر الزمن، إذ يقول:

«وتلمسان هي مدينتنا التي علقت بها التمائم، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقري بن علي صاحب الشيخ ابن مدين، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم، وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء...» (المقري، 1997، 133)

لقد زاوج "المقري" في نقله لنا ما قيل مدحا لتلمسان بين الشعر والنثر، فنجده يبلغنا قول "بن مرزوق" مادحا تلمسان: « يكفيك منها ماؤها وهواؤها...» (المقري، 1997، 133)

وكذلك قول "أبو زكريا يحي بن خلدون" في كتابه "بغية الرواد"، متحدّثا عن أخبار "بني عبد الواد" وأيام "أبي حمو موسى الزياني" الشامخة، إذ نجده يفصّل في أصل تسمية مدينة تلمسان، فهي كلمة مركبة من جزأين هما: "تلم" و"سن" ومعنى الأول هو تجمع أما الثاني فمعناه اثنان، التي تعني الصحراء والتل معا، ويعطي لنا تسمية أخرى وهي تلمشان، وتتركب هي الأخرى من مقطعين هما: "تلم" و"شان" ومعناهما: تل له شأن، فيقول: «ودار ملكهم وسط الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن مركبة من تلم ومعناه تجمع، وسن ومعناه اثنان: أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الآبلي رحمه الله تعالى، وكان حافظا بلسان القوم، ويقال تلمشان، وهو أيضا مركب من تلم ومعناه لها وشان أي لها شأن.» (المقري، 1997، 134)

لكن "ابن خلدون" لا يقف عند هذا الحد، بل يواصل كلامه عن تلمسان فيصف هواءها وماءها ووهادها ووديانها بعبارات تخطف الأبصار وتجذب القلوب، لاحظوا قوله الآتي: «وهي مدينة عريقة في التمدن، لذيذة الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت بسفح الجبل، ودوين رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب، عروسا فوق منصة، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ويطل منها على فحص أفيح معد للفلاحة تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهاري، وتبقر في بطونه عند تدميث الغمائم بطون العذارى، وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقة، والبساتين

الرائقة، مما زخرفت عروشه، ونمقت غروسه، ونوسبت أطواله وعروضه، فأزرى بالخورنق، وأخجل الرصافة، وعبث بالسدير...» (المقري، 1997، 134) (ابن خلدون، 1903).

إلى أن يقول: «فأنا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إياه عندي:

ماجنة الخلد إلاّ في منازلـــكم وهذه كنت لو خُيِّرت أختـــــار
لا تتقوا أن تدخلوا بعدها سقرا فليس تُدخلَ بعد الجنـــــة النار»

(المقري، 1997، 134)

من خلال المثال السابق في كلامه عن مدينة تلمسان نرى أن "المقري" كان يولي أهمية بالغة بالألفاظ، فاختيار الألفاظ شيء مهم في عملية الوصف، ولعل سحر البيان هو من يجعل القارئ يهتم، وقد تحدث "الجاحظ" عن سحر البيان وعن تأثير المعاني، فالألفاظ غلاف لما تحويه من قدر جم من المعاني اللامنتهية في قوله: «واعلم أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعاني أي الألفاظ مقصورة ممدودة ومحصلة محدودة...» (الجاحظ، 1996، 76).

كما ينقل لنا المقري كلام "لسان الدين بن الخطيب" في مدينة تلمسان، وهو لا يختلف كثيرا عن سابقه "ابن خلدون"، إذ أن كلاهما ينعتها بالملك الذي يضع على رأسه التاج وحوله الخدم والأعيان، إذ يقول: «تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه عبادها يدها وكهفها كفها، وزينتها زيانها، وعينها أعيانها، هواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عتيد، وماؤها برود صريد، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب، فلا نحول فيها ولا شحوب، خزانة زرع، ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، و برانسها رقاق رفاع، إلا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك، مغلوبة للأمراء، أهلها ليست عندهم الراحة، إلا فيما قبضت عليه الراحة، ولا فلاحة، إلا لمن أقام رسم الفلاحة، ليس بها لسع العقارب، إلا فيما بين الأقارب، ولا شطارة إلا فيمن ارتكب الخطارة.» (المقري، 1997، 135)

ثم ينتقل المقري بعد ذلك للحديث عن أهم أعلام تلمسان، فيتفصل في حديثه عن مشايخها وخريجيهم بإطناب كبير ،وتفصيل دقيق يومئ لنا إضافة لكونه علامة، بأنه مؤرخ حصيف أيضا.

-خاتمة: ما قدمناه مجرد جولة قصيرة في المجلد السابع من كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) حاولنا فيها التركيز على ما جمعه لنا "المقري" من قصائد وأقوال قيلت مدحا لهذه المدينة العريقة والتي نبت فيها "المقري" وانطلق منها غربا وشرقا.

حرص "المقري" أثناء وصفه لمدينة تلمسان أن يكون دقيق في انتقاء الملفوظات الملائمة، فاختار من الأشعار ما يناسب المقام وفق المناسبة التي يعيشها في الفترة ذاتها، وهذه طبيعة الكتابة القديمة التي تشبه كتابة المذكرات أو اليوميات أو أدب الرحلة عموما.

استند "المقري" في وصفه لتلمسان إلى مخياله المفعم بالجماليات، ويجعل من المدينة امرأة حوته، وعينا لا ينضب ماؤها، وهو في ذلك يعيش حالة الغربة والحنين إلى منشئه.

لم يترك المقري كلامه في وصفه لتلمسان ذاتيا، بل أشرك فيه أراء وأقوال بعض الأدباء والمؤرخين، كابن خلدون" و"لسان الدين الخطيب"، وذلك ليخلق فضاء موضوعيا لكلامه عن تلمسان، ولذلك اختار ما يجمّل وصفه من الشعر والنثر على حدّ سواء.

5. قائمة المراجع:

- ابن حزم الظاهري الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، مكتبة مشكاة الإسلامية، اعتمادا على الموقع: *https://www.noor-book.com. (Consulté le 06/10/2019)*
- ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة بيير فونطانا الشرفية، د.ط، الجزائر، 1903.
- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1996.
- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط جديدة 1، بيروت- لبنان، 1997.
- جيرار جنيت، حدود السرد، تر: بن عيسى بوحمالة، مقال ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، ط1، منشورات اتحاد كُتاب المغرب، 1992.
- سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، بيروت – لبنان/الدار البيضاء، 1990.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، لبنان بيروت، د.ت.
- معروف الرصافي، نفح الطيب في الخطابة والخطيب، مطبعة الأوقاف الإسلامية، دار الخلافة العلية، ط1، 1917.